

هوية سوريا: التنوع في الأقليات

2012/08/02

في وجه المعركة الشرسة التي يقودها النظام ضد شعبه، وفي ظل غياب قيادة معارضة تستطيع توجيه هذا الحراك وذلك يعود لأسباب كثيرة؛ منها:
1- عدم توافر الأرضية الحزبية المتنوعة في باطن الجسم السوري باستثناء الأحزاب الكردية والتي كانت في نشاط وغلجان دائم بالرغم من القمع الشديد الذي مارسه النظام بحقهم.

2- خلو الثقافة الاجتماعية من التعددية الفكرية حيث ساهم النظام السوري بتأجيلها وتفعيلها في عقول الأفراد من خلال بناء نموذج ثقافيٍّ أحاديٍّ وتحديده ضمن معلومات وتجارب مختزنة في ذاكرتنا الطويلة العاكسة لثقافة المحيط والتي تؤدي بدورها إلى توحيد الرؤية والاستراتيجية.

هذا النموذج الثقافي يحد من عملية الإدراك عند الفرد والتي تعتبر عملية بناء وإبداعية، مما يسهل عملية التشنج العقلي ورفض أية حالة إدراكية مختلفة. لهذا نلاحظ بعض التشابه في الخطاب ما بين النظام السوري وبين غالبية المعارضة السورية. فالبرغم من الاختلافات والأيدولوجيات المختلفة والتنافس الشديد فيما بينهم، نلاحظ أن الخطاب والتحليل والاستراتيجية الواحدة هي الغالبة عليهم.

يعتمد النظام السوري على إثارة الرعب والخوف بين الأقليات (إن كانت أقلية إثنية أو دينية أو طائفية أو أيولوجية...) من الإسلام السياسي الذي هو حاضر بين صفوف بعض من يقاتلوا في وجه هذا النظام، لتكون ورقة أساسية لتحويل المعركة إلى معسكرين (مع وضد الأسد). كما يعتمد هذا النظام على إثارة ورقة القومية العربية التي تقصي جميع الأقليات الإثنية وتجبرها على مبدأ التبعية. وهذا ما لاحظناه في مؤتمر القاهرة الأخير للمعارضة السورية وتشنج البعض إزاء عملية الاعتراف بحقوق الشعب الكردي الأصيل والمتجزر في هذه المنطقة.

هناك الكثير من السوريين الذين يتعاملون مع هذه القضية من نظرية المؤامرة، ليستبقوا الأفعال بتهم التخطيط للانفصال لإنشاء كيان كردي في المنطقة.

لهذا يتوجب علينا تذكير الجميع بالتاريخ النضالي للشعب الكردي ضد النظام القمعي السوري منذ أيام الأسد الأب. كما كان لهم دور في التاريخ النضالي السوري بشكل عام.

بدأت عملية اضطهاد الشعب الكردي منذ الخمسينات ليلبغ قمة التمييز العنصري بحقهم مع صدور مرسوم الإحصاء في 23 آب 1962 المؤقت من رئيس الجمهورية ناظم القدسي، لتبدأ عملية مبرمجة لاضطهاد الكورد في سوريا.

أثبت التاريخ انتماء الشعب الكردي إلى الوطن السوري الجامع لكل القوميات، ليكون واضحاً بعد مرحلة الاستقلال عندما كانت المواطنة القيمة الأساسية للجميع. إلا أن الشعور المتنامي لدى القوميين العرب تظاهر ابتداء التمييز بين أطراف الشعب السوري الواحد وحرمان الأقليات الإثنية من ممارسة أبسط حقوقهم، ناهيك عن تجريد ما يقارب 120000 مواطن كردي من جنسيتهم السورية في يوم واحد عام 1962.

إن التطرق إلى القضية الكردية وإلى معاناتهم والاعتراف بجميع أخطاء تلك الفترة والعمل على تصحيحها يخدم هذا الحراك ويدفعنا نحو الأمام من أجل بناء دولة مواطنة يتساوى فيها الجميع.

لهذا يتوجب على الحديث عن باقي الأقليات وبالأخص الطائفة العلوية التي تعتبر جزءاً أساسياً في الحل والتي ستسرّع في عملية التغيير والتخلص من النظام الأسدي من خلال فتح أفتح أفتحة مع شخصيات نافذة مؤثرة على أفراد طائفتهم وتبني خطاب وطني تشاركي بين الجميع، كي يكونوا جزءاً من العملية السياسية لسوريا المستقبل.

يعاني العلويون والأقليات الدينية الأخرى من مشاعر الخوف من الاضطهاد، وبالتحديد، علينا اللقاء النظر على معاناة العلويين المتواجدة في الذاكرة الجمعية والمملوءة بتمثيلات عقلية مدججة بالاضطهاد التاريخي والتمييز ضدهم منذ زمن السلطان عبد الحميد، لتنشأ عن هذه الحالة انعزال وفقير مدقع مما أدى إلى ظهور تمييز طبقي واضح الملامح.

كلامي عن هذه المعاناة هي بهدف الفهم والاستيعاب لتجاوز هذه الحالة المتشنجة التي يقف فيها الجميع موقف الدفاع والاستمرار.

فما ينقصنا اليوم وفي هذه الحالة العصبية هو استمالة الفئات الصامتة والقريبة للنظام ذات الموقف الدفاعي والتي تعارك من أجل الحياة كما هي الفئات الأخرى. فهي التي يمكنها إضافة إيجابيات على هذا الحراك المنفض كي تتميز سوريا بطابع وطني متنوع.

ومن أجل هذا، أعتقد أن اعتمادنا على مبدأ المصادقية في تناقل الأخبار والمعلومات تضفي إيجابياً وتطمئن جميع الفئات الخائفة التي لا هم لها اليوم، ضمن هذه الأحداث المؤلمة، إلا العودة إلى حالة الأمن والاستقرار والطمأنينة.

ولهذا يتوجب على التنويه أن العناصر غير المضبوطة في هذا الحراك تقوم بخدمة الأسد وإطالة بقائه في الحكم. كما أن نقد السلوكيات والأعمال التعنيفية الممارسة من قبل بعض العناصر الراكبة لهذا الحراك التي لا تبحث إلا عن مصالحها الضيقة لا يقلل من شأنه. لا بل يترتب علينا أيضاً الكشف عنهم وعمل كل ما يمكن من أجل إبعادهم لتجنب تحويل الحراك إلى عراك طائفي لا يمكنه إلا خدمة بعض دول المنطقة.

لا يمكنني إلا أن أنهي هذا المقال بكم من شحنات الأمل لرؤية سوريا الفسيفسائية والعاكسة لتاريخها الطويل.